

المحاضرة الخامسة

اسرة هرقل (الجزء الأول)

تتناول المحاضرة العناصر التالية:

هرقل (610- 641م)

قسطنطين الثالث وهرقليون (641)

هرقل (610- 641م)

شهد عهد فوكاس اضطرابات داخلية، وتدهور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للإمبراطورية، وانتهزت العناصر الخارجية الفرصة لتغيير على أملاك الإمبراطورية، وأدى الأمر لثورة، انتهت بإرسال هرقل حاكم قرطاجة اسطول إلى القسطنطينية بقيادة ابنه الذي يدعى هرقل كذلك، والذي تمكن بمساعدة أهالي القسطنطينية وكبار رجال الدولة، وزعماء حزب الخضر، من القبض على الإمبراطور وأعوانه وبعض أقاربه، وتمت محاكمة فوكاس محاكمة علنية، وتولى هرقل نفسه استجواب الإمبراطور، وأنتهت المحاكمة بالحكم عليه بالموت، وتم تتويج هرقل (الابن) إمبراطورا عام 610م، بناء على رغبة بعض كبار رجال الدولة وبطريك القسطنطينية، ووسط ترحيب شعبي كبير، لتبدأ أسرة جديدة، هي أسرة هرقل.

ولا يعني الترحيب الشعبي بحكم هرقل، أن الأمور استقرت له دون أن يقابل عقبات، فقد حاول بقايا بيت فوكاس الإنتقام والعودة للحكم، وكانت تدعمهم بعض قوات الجيش المتمركزة في آسيا الصغرى، ولكن ساعد هرقل أن السلطات المحلية والزعامات الشعبية كانت تتمسك به، فتمكن بمساعدتهم من القضاء على التمرد والتخلص من المتمردين.

وبعد أن انتهى من القضاء على بقايا بيت فوكاس، كان على هرقل مواجهة العديد من المشكلات الكبرى التي كادت تعصف بالإمبراطورية، فالإضطرابات الداخلية هددت أمن الإمبراطورية، حتى أصبحت الفوضى هي الثمة العامة للدولة، فأصاب الخلل الحياة الاجتماعية، نتيجة لتزايد الخلافات بين أصحاب المذاهب الدينية المختلفة، وساءت الأحوال الاقتصادية، فقد كانت خزانة الدولة خاوية، نتيجة لفقد الامبراطورية لعدد من الأقاليم الغنية التي كانت تعتمد عليها اقتصاديا، وفقدت الإمبراطورية مصدرا ضخما للضرائب، وتدهورت الحياة السياسية نتيجة عودة المنافسة بين الأحزاب، وعدم رضا بعض أفراد الطبقة الأرستقراطية عن حكم هرقل، وانهارت الجوانب العسكرية نتيجة ما تعرض له الجيش من هزائم متتالية، فلم تعد له قدرة على القتال، وانهار النظام الذي بدأه الإمبراطور مورييس، وفقدت الإمبراطورية عنصر هام من الجيش، بالإضافة إلى زيادة التهديد الفارسي على أقاليم الإمبراطورية، فكان على هرقل إعادة تنظيم أمور الإمبراطورية، وبناء جبهة داخلية مستقرة، والعمل على انقاذ الاقتصاد المتدهور، حتى يتمكن من إعادة بناء جيش الإمبراطورية، الذي يساعده على صد الهجمات الخارجية، والدفاع عن الإمبراطورية، ولكي يحقق هذا، كان يجب أن يضمن جبهة داخلية متماسكة، فيعمل أولا على إنهاء الخلافات الدينية، وتحقيق النهضة الاقتصادية لأنها السبيل لتحقيق العدالة الاجتماعية، وإنهاء التذمر الشعبي، وعندما بحث في الأولويات وجد أن يبدأ هرقل على الفور بتهدة الصراع بين الأحزاب، ومحاولة إعادة زعماء حزب الزرق إلى الحياة العامة بعدما انسحبوا بعد مقتل فوقاس، **(كان حزب الزرق مؤيد لحكم فوقاس، بينما كان الخضر ضد حكم فوقاس ودعموا هرقل عند دخوله القسطنطينية)**، ورغم تأييد الخضر لهرقل، إلا أنه لم يظهر تفضله لهم عن الزرق، وكان لإصلاحات هرقل الإدارية دور كبير

في القضاء على سلطة الأحزاب، إذ أصبحت الإدارة الفعلية في يد استراتيجوس الثيم، وانحصرت الإدارة المدنية على الأقاليم في أمور بسيطة، وجمع القادة العسكريين بين السلطة المدنية والعسكرية من جديد، فمنعت التجمعات الكبيرة للأحزاب، ولم تترك لهم مساحة للإشتباك، فبدأت سلطة الأحزاب تختفي بالتدريج، وعادوا لممارسة دورهم الأساسي، المتمثل في تنظيم سباق الخيول والعربات، واستقبال الوفود في الهيبودروم، ويذكر لهم أنهم وقفوا إلى جانب الإمبراطور أثناء الحرب مع الفرس، وقاموا بدور مهم في حماية أسوار القسطنطينية من هجمات الفرس والآفار، كما نظموا احتفال ضخم بعد تحقيق الإمبراطور النصر على الفرس واستعادة بيت المقدس، وحاول الإمبراطور كذلك أن يذيب الخلافات بين أصحاب المذاهب الدينية المختلفة، وإن كان هرقل لم ينجح في هذه المهمة، فقد ساعد احتلال الفرس لبيت المقدس على التقريب بين أصحاب جميع المذاهب، فنسوا إلى حد كبير ما بينهم من خلافات، واجتمعت قلوبهم على الصلاة والدعاء للإمبراطور بالنصر، وإعادة المدينة المقدسة واستعادة الصليب المقدس.

وكان الفرس قد انتهزوا فترة الإضطرابات في عهد الإمبراطور فوكاس، وتقدموا في أراضي الإمبراطورية، بحجة الإنتقام لصديقهم وحليفهم الإمبراطور مورييس، ولم يكتفوا بالسيطرة على انطاكية وأرمينيا، ولكن امتد نفوذهم إلى المدن المحيطة، ولم تكد الإضطرابات الداخلية في الإمبراطورية تنتشر، حتى قرر الفرس التوجه لبلاد الشام، وشجعهم على ذلك الخلاف الجوهرى بين الإدارة الإمبراطورية والولايات فيما يتعلق بالمذاهب الدينية، فلم يجدوا مقاومة كبيرة من بعض الأقاليم التي استولوا عليها، فرحفوا إلى بلاد الشام، واستولوا على عدة مدن، ففتح أ مامهم الطريق لبيت المقدس عام 614م، وضربوا عليها الحصار، فلما وجدوا مقاومة كبيرة من حاميتها والسكان، فاقتحموها، وأشعلوا النيران في كنيسة القيامة (الضريح المقدس)، ونكلوا بالمسيحيين، وجدير بالذكر أن يهود المدينة تعاونوا مع الفرس في تدمير الأديرة والكنائس، وقتل عشرات الآلاف من سكان المدينة المسيحيين، ويقال أن الفرس استولوا على الصليب المقدس، ونقلوه إلى بلادهم، ولم يكتفوا بتلك الإنتصارات، فأرادوا أن يوجهوا ضربة قاصمة للإمبراطورية من الناحية الإقتصادية، فتوجهوا نحو مصر، فاستولوا على الإسكندرية عام 619م، وتوغلوا داخل المدن المصرية حتى بسطوا سيطرتهم على كامل مصر، وكان ذلك ضربة قوية للإمبراطورية البيزنطية، إذ أدى استيلاء الفرس على مصر إلى انقطاع القمح المصري عن الإمبراطورية، مما شكل أزمة اقتصادية، أمتدت تأثيرها لفئات عديدة في المجتمع البيزنطي، ولم يقتصر الأمر على الخطر الفارسي، وإنما ضغط السلاف على حدود الإمبراطورية، وتوغل الآفار في مناطق أخرى.

وكان الفرس هم أخطر العناصر على الإطلاق، وأحدث سقوط بيت المقدس صدى هائل في الأوساط المسيحية، وكان على هرقل أن ينهض لاسترداد الأرض المقدسة، وزاد الأمر سوءا بإحتلال مصر، فأنهالت المصائب على الإمبراطورية من كل جانب، ولكن هرقل لم يكن يستطيع التصدي لتلك الأزمة في وجود فساد داخلي في كثير من إدارات الإمبراطورية، فالاستقرار السياسي ومواجهة الأخطار الخارجية لن يتحقق إلا في ظل استقرار أحوال الدولة الداخلية، فقام بتعديلات في الإدارات التي طالتها يد الفساد خلال الفترة السابقة، وطور نظام الإقطاع الحربي ليقوي عناصر الجيش، فقسم الإمبراطورية إلى مناطق عسكرية عرفت بالثيمات (الأجناد)، وهو النظام الذي بدأه الإمبراطور مورييس، وكان ينوي نشره في المناطق الحدودية للإمبراطورية، غير أن هرقل وجد أن هذا هو النظام المناسب للأوضاع التي تمر بها الإمبراطورية، وزاد من أعداد المواطنين الذين أنضموا للخدمة بالجيش بنظام الإقطاع الحربي، وقرر هرقل أن يدخل بعض العناصر التي تهدد أمن الإمبراطورية في تلك الخدمة، فيستفيد من حمايتهم لمناطق الحدود، ويدخل للجيش عناصر جديدة، تساعد على زيادة الحماس بين الجنود، ويستغنى بهم عن الجنود المرتزقة الذين يكلفون الإمبراطورية مبالغ كبيرة، وفي نفس الوقت يقي الإمبراطورية شر التعرض

لهجماتهم، فتفاوض مع **الصفاليين** على الإلتحاق بقوات الثيمات، وبالفعل انتقلوا إلى المناطق الشرقية للإمبراطورية، حيث نزلوا باقطاع حربي خاص بهم (ثيم)، وفر لهم الإمكانيات الاقتصادية الكافية، وانعكس ذلك على الحياة الاقتصادية التي بدأت تنتعش داخل الإمبراطورية.

أما الآفار، فكانوا قد تعاونوا مع الفرس وهددوا الإمبراطورية، ولذلك اضطر هرقل لعقد صلح معهم، وتعهد بدفع إتاوة سنوية كبيرة، مع تقديم عدد كبير من الرهائن، لكي يأمن جانبهم ويتفرع لإعداد القوات التي يواجه بها الفرس، ويتمكن من نقل قواته بأمان في المناطق التي تقع تحت سيطرة الآفار، واضطر لتجديد الصلح ودفع الإتاوات عدة مرات، عندما يقوم الآفار بنقض المعاهدة وتقديم العون للفرس.

وفي ظل تعرض الإمبراطورية لتلك المشكلات الكثيرة، قرر هرقل فجأة أن يرحل إلى موطنه قرطاجة، وتضاربت آراء المؤرخين حول ذلك، فمنهم من قال بأن اليأس تمكن من الإمبراطور، فقرر أن يتخذ مسقط رأسه عاصمة مؤقتة حتى تستقر الأمور بالقسطنطينية، غير أن هناك فريق آخر من المؤرخين اعترض على هذا الرأي، وقالوا أن هرقل كان قد أعد خطة استراتيجية لاستعادة المناطق التي سيطر عليها الفرس، فقرر أن ينتقل إلى أفريقيا ليسهل له القيام بالهجوم على القوات الفارسية الموجودة في مصر، ويستعيدها من الاحتلال الفارسي، لإن استعادة مصر أولاً يضمن له استقرار الجانب الاقتصادي الذي يسعى لتحقيقه، بالإضافة لقلقه من اتخاذ الفرس مصر قاعدة يشنون منها الهجمات على شمال أفريقيا.

غير أن البطريق سرجيوس وكان صديقاً مقرباً لهرقل، رفض فكرة التوجه لأفريقيا، وتوسل للإمبراطور للبقاء في القسطنطينية، ووجد هرقل أن بقاءه في القسطنطينية أصبح مطلباً شعبياً، بعدما تجمع عامة الأهالي عند القصر الإمبراطوري رافضين رحيل الإمبراطور، ويذكر المؤرخون أن البطريق طلب من الإمبراطور أن يصحبه لكنيسة آيا صوفيا قبل القرار بالرحيل، فذهب معه تتبعهم جموع الشعب حتى دخل الكنيسة، وهناك توسل البطريق للإمبراطور بالبقاء في العاصمة، وشن هجماته على الفرس منها، وأمام توسلات البطريق والمواطنين، أقسم هرقل في الكنيسة أنه لن يغادرها إلا لمحاربة الفرس، وخرج من الكنيسة بين هتاف الناس ودعواتهم له بتحقيق النصر، وبادر البطريق بوضع جميع إمكانيات الكنيسة تحت تصرف الإمبراطور، ودعا رجال الدين لجمع ما تحويه الكنائس والأديرة من أموال وكنوز، لتقديمها للإمبراطور للإستعانة بها على تجهيز قوات الجيش لرد العدوان الفارسي عن المدينة المقدسة، وبالفعل قبل هرقل هذه الكنوز وتعهد للبطريق بردها بعد استقرار الأحوال الاقتصادية للإمبراطورية (**ووفى الإمبراطور بوعده ورد الديون بالفعل**)، والقضاء على العدوان الفارسي، وعلى الفور أمر الإمبراطور بإصدار عملة جديدة لمواجهة الإنهيار الاقتصادي، وأمر بوقف توزيع الخبز المجاني، لحين تعويض ضريبة القمح المصرية بزراعة القمح في البلقان وشرق آسيا، وقد وجد هذا القرار اعتراضات وتزمر من العامة، إلا أن تلك الأزمة تم تجاوزها بسرعة لثقة الأهالي في الإمبراطور، واقتناعهم بأن ما يتخذ من إجراءات يصب في صالح الإمبراطورية، وقام البطريق سرجيوس بدور كبير في امتصاص غضب المواطنين، ودعاهم للإلتفاف حول الإمبراطور وتأييده وإقامة الصلوات حتى يعود منتصراً.

وخرج الإمبراطور بنفسه على رأس الجيش في أول حملة على الفرس (622- 623م)، وتمكن من استدراج الفرس للأماكن التي أعدها لملاقاتهم، وكانت حملته هذه موفقة، وحقق فيها نصراً كبيراً، وعاد للعاصمة حتى تستعيد قواته اللياقة البدنية بعد حروب طويلة، ثم ما لبث أن خرج بحملة عسكرية جديدة

عام 624م، حقق فيها نصرا أعاد هيبة الإمبراطورية بعد تعرضها لهزائم متتالية من الفرس، واسترد أرمينيا وغيرها من المدن، واستولى على بعض المدن الفارسية.

تحرك الجيش البيزنطي في حملة جديدة بعد انقضاء شتاء 625م، استمرت فترة طويلة جدا، وتخللها عدة حروب متتالية، بدأت بتحقيق الفرس الانتصار، ولكن سرعان ما استعاد هرقل توازن قواته، وحقق انتصارات هائلة على الفرس، حاول كسرى تدارك الأمر، فقرر أن يشغل هرقل بالدفاع عن القسطنطينية، فاتفق مع الآفار على مهاجمة القسطنطينية، فأسرع هرقل بتقسيم جيشه لثلاث أجزاء، وأرسل أحدها بقيادة شقيقه لحماية القسطنطينية، وبادر الأهالي بحماية العاصمة من الداخل، وشكل مشجعي الخضر والزرق حائط دفاع عن القسطنطينية، بينما تقدم هرقل نحو العاصمة الفارسية، حيث استعاد الصليب المقدس.

انتهت حروب هرقل مع الفرس بتحقيق انتصارات عظيمة للإمبراطورية، وبدأت مرحلة النهاية لدولة الفرس، وانتهت انتصارات هرقل بدخول بيت المقدس عام 629م واستعادة مصر، وأخيرا عاد هرقل إلى القسطنطينية وسط ترحيب الأهالي والإحتفال بالنصر.

حقق هرقل انتصارات واسعة على الفرس وهم العدو الأول للإمبراطورية، تناولتها المحاضرة باختصار، وحقق للإمبراطورية الاستقرار السياسي والإقتصادي، وأهتم بالأحوال الإجتماعية، ورغم تقدير الشعب البيزنطي لهرقل كإمبراطور عظيم انقذ الإمبراطورية، إلا أن هناك أمرا لم يغفره الشعب للإمبراطور هرقل، وهو مسألة زواجه من مارتينا ابنة شقيقته في مخالفة صريحة لتعاليم المسيحية.

وكان هرقل قد تزوج من إيدوكيا فور اعتلائه العرش عام 610م، وانجبت له قسطنطين، وقام هرقل بتتويجه بعد أيام من مولده، وأعلنه قيصرا وشريكا له في الحكم، وما لبثت إيدوكيا أن توفيت بعد فترة قصيرة، فتزوج هرقل من مارتينا ابنة شقيقته عام 612م، وقابل الشعب والكنيسة هذا الزواج بغضب شديد، وحاول البطريرك سرجيوس التصدي لهذا الزواج، ولكنه لم يتمكن من التأثير على هرقل، بل اضطر مرغما بأمر من الإمبراطور أن يضع بنفسه تاج الإمبراطورية على رأس مارتينا، رغم إيمانه بأن هرقل اقترف إثما عظيما، ولكنه وجد أن الوقوف في صف الإمبراطور في ذلك الوقت العسير، هو الحل لإنقاذ الإمبراطورية من الإنهيار الداخلي والإغارات الخارجية.

انجبت مارتينا لهرقل ابنه هرقليون عام 626م، وتوجه هرقل قيصرا، واشركه معه في الحكم إلى جانب ابنه الأكبر قسطنطين. **(أثمر زواج هرقل ومارتينا عن تسعة أطفال مصابين باعاقات)**

لم، تمض فترة طويلة على انتصار الإمبراطورية على الفرس، حتى بدأت حركة الفتوحات الإسلامية، فزحف المسلمون يحركهم الحماس للجهاد ونشر الإسلام في أراضي الدولة البيزنطية، فانتصروا على البيزنطيين في معركة اليرموك عام 636م، وفتحوا بعض مدن بلاد الشام، وأخيرا دانت لهم القدس التي تسلمها الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه، في نفس الوقت كانت الجيوش الإسلامية تخضع بلاد الفرس.

أوصى هرقل قبل موته باشتراك زوجته مارتينا في الحكم كوصية على ابنها هرقليون، وعندما توفي هرقل عام 641م، تولى العرش قسطنطين (قسطنطين الثالث) وهرقليون، ورغم أن هرقل أشركهم معه في الحكم حتى يضمن عدم قيام الثورة عليهم بعد موته، إلا أن الفتن جاءت من داخل الأسرة نفسها، فما لبث النزاع أن بدأ بقوة بين قسطنطين وهرقليون تحت وصاية أمه مارتينا، إنتهى الصراع بوفاة قسطنطين بعد شهور قليلة، ويقال أن مارتينا تخلصت منه، وانفرد هرقليون بالحكم تحت وصاية مارتينا، إلا أن الأمر قبل بثورة شعبية، إنتهت باصرار الأهالي على ترك الحكم لفتنستانز ابن قسطنطين الثالث، (641-668م).

